الفصل الأول

ذات صباح

استيقظ سامي عادل في الساعة السادسة وسبع عشرة دقيقة تماماً، كما يفعل كل صباح منذ أن برمجت الساعة الذكية نفسها على إيقاظه في اللحظة التي يصل فيها معدل ضربات قلبه إلى الحد الأدنى للنشاط الليلي. لم يكن هناك منبه تقليدي. المنبه نفسه كان إعلاناً.

صوت امرأة ناعمة، مألوفة جداً لدرجة أنه لم يعد يتذكر متى سمعها لأول مرة، همس من مكبرات الصوت المخفية في الجدران:

— صباح الخير يا سامي... هل فكرت اليوم في حليب «نضارة بلس»؟ البروتين النباتي بنسبة ٣٧٪ أكثر، والسعادة مضمونة في كل رشفة.

فتح عينيه. السقف فوقه يعرض فيلماً قصيراً متكرراً: فتاة طويلة القامة، أسنانها بيضاء بشكل غير طبيعي، تبتسم ابتسامة بلهاء وتمسك كوباً من الحليب. الابتسامة لم تتغير منذ ثلاث سنوات. كان يعرف ذلك لأنه عدّها مرة في لحظة يأس.

حاول أن يغمض عينيه من جديد، لكن الملاءة التي تغطي جسده بدأت تهتز بخفة. الحبر الإلكتروني المطبوع عليها تحول من لون رمادي هادئ إلى ألوان صارخة. ظهرت جملة كبيرة فوق صدره:

«عيد ميلاد سعيد يا سامي! اليوم تستحق خصماً خاصاً على باقة الإعلانات المميزة.»

كان عيد ميلاده الثلاثين. نسي. أو حاول أن ينسى.

نزل من السرير ببطء، متفادياً النظر إلى الوسائد التي كانت تعرض الآن إعلاناً عن مراتب طبية مضادة للشخير. بمجرد أن لمست قدماه الأرض، اشتغل التلفزيون على الحائط المقابل تلقائياً. عشرون قناة. كلها إعلانات. لم يكن هناك خيار لإغلاقه قبل الساعة العاشرة مساءً. هذا القانون صدر منذ ست سنوات، بعد أن أثبتت الدراسات أن «التعرض المستمر للمحتوى التسويقي يقلل من معدلات الاكتئاب بنسبة ٢٣٪».

سار نحو الحمام وهو يتمتم لنفسه:

— اليوم... اليوم فقط أريد دقيقة واحدة بلا صوت.

فتح الضوء. انطلقت فوراً شاشة صغيرة في المرآة. نفس الفتاة الطويلة. هذه المرة كانت تروج لمعجون أسنان «بياضه الفائق». الأغنية التي صاحبت الإعلان علقت في رأسه فوراً، كما تفعل دائماً. حاول أن يحلق ذقنه في الظلام أولاً، لكنه احتاج إلى الضوء ليرى ما يفعل. الإعلان استمر. كل ثلاث ثوانٍ يتغير المنتج: مسكن ألم بطعم التفاح، أوراق تواليت قابلة للغسل وإعادة الاستخدام، قماش مضاد للحريق، وجبة «الشفاء» المغلفة بالبروتين.

رفع السماعة عندما رن الهاتف. كان يعرف ما سيسمعه، لكنه رفعها على أي حال. ربما كانت مكالمة شخصية. ربما.

صوت امرأة ناعم، مختلف قليلاً هذه المرة:

— أنت سامي عادل؟

— أجل... من تتحدث؟

— اسمي ك. أنا أعرفك وأنت لا تعرفني. هل شعرت مؤخراً بكسل... أو ضيق... أو رغبة غريبة في الهروب من الأصوات؟

أغلق الخط بعنف. يده كانت ترتعش.

جلس على حافة المرحاض ونظر إلى أوراق التواليت. كل ورقة تحمل إعلاناً مختلفاً بألوان أربعة. حاول أن يركز في شيء واحد فقط: صوت تنفسه. لكنه فشل. الإعلانات كانت في كل مكان. حتى الهواء بدا وكأنه يحمل رائحة عطور مُسوَّقة.

في المطبخ، عندما لمس الثلاجة، ظهرت على بابها قائمة بوجبات الإفطار المقترحة حسب بيانات نومه الليلة الماضية. اختار أقلها إزعاجاً: شاي أسود بدون سكر. الثلاجة رفضت في البداية، ثم قدمت له كوب شاي مع رسالة صغيرة:

«هل تعلم أن ٧٨٪ من الناجحين يشربون شاي «الصباح الذهبي»؟ جربه اليوم بخصم عيد الميلاد.»

شرب الشاي وهو واقف. لم يكن لذيذاً. لم يكن أي شيء لذيذاً منذ فترة طويلة.

نظر حوله في الشقة الصغيرة. كل سطح قابل للطباعة الإلكترونية كان يعرض شيئاً. كل جهاز يتحدث. كل زاوية تبيع. شعر فجأة أن الجدران تقترب. أن الهواء ينفد. أن رأسه سينفجر إذا سمع جملة إعلانية واحدة إضافية.

في ذلك الصباح، في عيد ميلاده الثلاثين، اتخذ سامي عادل قراراً بسيطاً وخطيراً في آن واحد.

قرر أن يجد مكاناً... أي مكان... بلا إعلانات.

ولو لدقيقة واحدة.

ولو دفع ثمنه غالياً.

غادر الشقة دون أن يغلق الباب خلفه. الباب نفسه كان يعرض إعلاناً عن أنظمة أمان منزلية متطورة. لم يلتفت. نزل السلم بسرعة، وهو يحاول ألا يسمع الأغاني الإعلانية التي تنبعث من مكبرات الصوت في الممرات.

في الخارج، كانت المدينة قد استيقظت تماماً. الشاشات العملاقة على المباني، السيارات التي تمر وهي تبث إعلانات صوتية، الناس الذين يرتدون ملابس تحمل شعارات متغيرة حسب الموقع الجغرافي.

سامي رفع يده واستوقف سيارة أجرة. عندما جلس في المقعد الخلفي، تحرك ظهر المقعد ليظهر إعلاناً عن عصائر فيتامينات. فتح الجريدة التي تركها الراكب السابق. كانت الصفحات كلها إعلانات ملونة، وما تبقى من أخبار مدفونة بين سطور ترويجية.

قال للسائق بصوت خافت، كأنه يخاف أن يسمعه أحد:

— خذني إلى العنوان المكتوب على هذه الورقة.

ناول السائق قصاصة صغيرة حصل عليها منذ أسبوع من رجل التقاه مصادفة في مقهى قديم. العنوان في ضاحية نائية نسبياً.

السائق نظر إلى الورقة ثم إلى سامي نظرة طويلة في المرآة، لكنه لم يعلق. شغل المحرك. انطلقت السيارة.

سامي أسند رأسه إلى الزجاج ونظر إلى المدينة وهي تمر. لأول مرة منذ سنوات طويلة، شعر بشيء يشبه الأمل. أمل صغير وهش وخائف.

اليوم عيد ميلاده.

وربما، فقط ربما، يستطيع أن يقضي ساعة واحدة... بلا أصوات تبيعه شيئاً.

السيارة انعطفت نحو الضواحي. والإعلانات على الشاشات الجانبية كانت ما تزال تلاحقه، لكنها أصبحت أبعد قليلاً.

سامي أغمض عينيه وحاول أن يتذكر صوت الصمت.

لم يتذكره جيداً.

لكنه قرر أن يبحث عنه حتى يجده.

الفصل الثاني

تاريخ قصير للضجيج

في السيارة التي كانت تبتعد عن قلب المدينة، أسند سامي رأسه إلى الزجاج البارد وأغلق عينيه. لم يكن يحاول النوم. كان يحاول أن يتذكر متى بدأ كل هذا.

لم يبدأ فجأة. لا شيء يبدأ فجأة في هذا العالم.

كان عمره سبع سنوات عندما ظهرت أول شاشة إعلانية إلزامية في مدرسة الحي. كانت صغيرة، مثبتة فوق السبورة، وتعرض بين الحصص إعلانات عن أقلام رصاص «ذكية» وحقائب مدرسية «مقاومة للضغوط النفسية». المعلمون كانوا يبتسمون ويقولون إن هذا «تحديث تربوي». الأطفال كانوا ينظرون بانبهار. سامي كان ينظر بانزعاج غامض لم يعرف اسمه بعد.

في المنزل، كانت والدته ما تزال تغلق التلفاز في أوقات الطعام. كانت تقول بصوت هادئ:

— الأكل يحتاج إلى صمت يا سامي.

كان والده يوافقها أحياناً، ثم ينشغل بهاتفه الذي بدأ يعرض إعلانات على شاشته حتى وهو مغلق. في تلك الأيام كان الإغلاق ممكناً. كان هناك زر حقيقي يمكن الضغط عليه فينقطع الصوت.

ثم جاءت القوانين واحداً تلو الآخر، بهدوء شديد، كأن أحداً لا يريد أن يلفت الانتباه.

أولاً: قانون «التعرض الصحي للمحتوى التسويقي» الذي ألزم كل الأجهزة المنزلية بالبقاء مفتوحة لساعات محددة يومياً. قيل إن الدراسات أثبتت أن العزلة عن الإعلانات تسبب «اضطرابات في التكيف الاجتماعي».

ثانياً: إنشاء «هيئة الصحة الإعلانية». ظهرت فجأة في الأخبار كمؤسسة طبية علمية محايدة. مهمتها «حماية المواطنين من الآثار السلبية لرفض الرسائل التجارية». رفض الإعلان أصبح يُصنَّف تدريجياً كعرض مبكر لاضطراب نفسي.

ثالثاً: وزارة الاستهلاك. لم يعد اسمها وزارة التجارة أو الاقتصاد. أصبحت وزارة الاستهلاك صراحة. وشعارها المكتوب بخط أنيق على كل المباني الحكومية: «الاستهلاك حياة».

سامي كان في السابعة عشرة عندما اختفت صديقته الأولى، ندى.

كانت ندى تحب الجلوس في الحديقة العامة دون سماعات، ودون أن تفتح هاتفها. كانت تقول له أحياناً وهي تنظر إلى السماء:

— أتمنى لو أستطيع أن أسمع صوت الرياح فقط.

في أحد الأيام لم تأتِ إلى الموعد. اتصل بها فلم ترد. بعد أسبوع علم أنها أُدخلت «مركزاً لإعادة التأهيل الإعلاني» بناءً على بلاغ من والدها. كانت ترفض أن ترتدي القميص الذي يعرض إعلانات متغيرة حسب الموقع، وكانت تغلق هاتفها لأكثر من ساعتين يومياً. هذا يكفي.

عندما خرجت بعد ثلاثة أشهر، كانت تبتسم طوال الوقت. وكانت تردد جملاً إعلانية كأنها تتحدث عن الطقس. لم تعد تنظر إلى السماء.

سامي لم يرها بعدها كثيراً. وفي المرات القليلة التي رآها فيها، كان يشعر كأن شيئاً قد مات داخلها وحل محله محتوى ترويجي نظيف ومرتب.

منذ ذلك اليوم بدأ يراقب نفسه.

كان يعد الساعات التي يقضيها دون أن يسمع إعلاناً. في البداية كانت تصل إلى ساعة أو ساعتين في الأيام الجيدة. ثم أصبحت دقائق. ثم ثواني.

حاول أن يقاوم بطرق صغيرة: يضع سماعات بلا موسيقى ليتظاهر أنه يستمع إلى شيء، يغطي الشاشات الصغيرة بقطع قماش، يشتري أجهزة قديمة من أسواق سوداء صغيرة. كلها محاولات فاشلة. النظام كان أذكى. الإعلانات أصبحت تفاعلية، تقرأ تعبيرات الوجه ومعدل ضربات القلب ونبرة الصوت، فتغير رسائلها لتناسب حالته تماماً.

عندما بلغ الخامسة والعشرين، تلقى أول «تقرير صحي إعلاني» رسمي. وصل إلى هاتفه تلقائياً:

المواطن سامي عادل

مستوى التجاوب مع المحتوى التسويقي: منخفض

توصية: متابعة دورية مع هيئة الصحة الإعلانية

لم يذهب. تجاهل الرسائل اللاحقة. وفي كل مرة كان يتجاهل، كانت التوصيات تصبح أكثر إلحاحاً.

الآن، وهو في الثلاثين، في سيارة أجرة متجهة إلى عنوان مجهول في الضواحي، كان يعرف أنه تجاوز الخط الأحمر منذ زمن.

كان يعرف أيضاً أن ما يفعله الآن — البحث عن مكان بلا إعلانات — يُعتبر في نظر النظام عرضاً متقدماً للمرض.

لكنه لم يكن يشعر أنه مريض.

كان يشعر فقط أنه متعب. متعب جداً من أن يُباع له كل شيء، حتى الصمت نفسه.

فتح عينيه ونظر من النافذة. المباني بدأت تتباعد. الشاشات العملاقة أصبحت أقل عدداً. الشوارع أضيق وأكثر هدوءاً نسبياً.

وضع يده في جيبه وتحسس القصاصة الورقية التي كتب عليها العنوان. الورقة نفسها كانت نادرة. الورق الحقيقي أصبح غالياً وغير مريح للنظام، لأنه لا يعرض إعلانات متغيرة.

ابتسم ابتسامة صغيرة ومرة.

عيد ميلاده الثلاثين.

وربما يكون آخر عيد ميلاد يقضيه وهو ما يزال يتذكر صوت الصمت، حتى لو كان الصوت مجرد ذكرى باهتة.

السيارة انعطفت إلى شارع جانبي شبه خالٍ. السائق خفض صوت الإعلانات داخل السيارة قليلاً، ربما من باب المجاملة، أو ربما لأن الإشارة ضعفت في هذه المنطقة.

سامي تنفس بعمق.

للمرة الأولى منذ سنوات، شعر أن الهواء يدخل إلى رئتيه دون أن يحمل رائحة عطر مُسوَّق أو جملة ترويجية.

استمر في النظر من النافذة، وهو يستعيد وجه ندى وهي تنظر إلى السماء، ووجه والدته وهي تقول إن الأكل يحتاج إلى صمت، وصوت والده الذي كان ما يزال قادراً على إغلاق هاتفه بزر حقيقي.

كل هؤلاء اختفوا تدريجياً داخل الضجيج.

وهو لا يريد أن يختفي مثلهم.

على الأقل ليس اليوم.

الفصل الثالث

البحث عن الصمت

السيارة توقفت أمام مبنى قديم من ثلاثة طوابق في نهاية شارع ضيق. لم تكن هناك شاشات عملاقة على الجدران، ولا مكبرات صوت تخرج من أعمدة الإنارة. حتى الإعلان المضيء فوق باب البقالة المجاورة كان مطفأً، أو ربما معطّلاً منذ زمن.

سامي دفع الأجرة بسرعة. السائق نظر إليه نظرة طويلة هذه المرة، كأنه يريد أن يقول شيئاً، ثم هز رأسه وانطلق دون كلمة.

وقف سامي أمام الباب الخشبي البني الذي فقد لونه من كثرة السنين. القصاصة الورقية في يده كانت قد ابتلت قليلاً من عرق كفه. العنوان صحيح. الشقة في الطابق الأرضي.

ضغط على الجرس. لم يكن جرسًا موسيقياً ولا إعلانياً. كان صوتاً معدنياً قديماً، جافاً، يشبه صوت الأجراس في الأفلام التي كانت تُعرض قبل أن تتحول كلها إلى محتوى ترويجي.

بعد لحظات فُتح الباب جزئياً. امرأة في الخمسينيات، ممتلئة الجسد، شعرها مربوط إلى الخلف بإحكام، نظرت إليه من خلف سلسلة الأمان. عيناها ضيقتان وحذرتان.

— ماذا تريد؟

صوتها خشن، مباشر، بلا أي نبرة ترحيب.

سامي خفض صوته غريزياً، كأنه يخشى أن يسمعه الشارع كله:

— السيدة... ع؟ حصلت على اسمك وعنوانك من صديق. وقيل لي إنك... تؤجرين بعض الغرف.

المرأة حدقت فيه ثوانٍ طويلة. ثم قالت بحدة:

— ابتعد عن هنا. سوف تسبب لي المتاعب. أنا مواطنة محترمة.

ابتسم سامي ابتسامة متعبة، ورفع يديه قليلاً كمن يستسلم:

— سوف أدفع ما تريدين. لدي وظيفة محترمة. أنا...

قاطعته:

— كم؟

— مائتان. ضعف ما أدفعه في مشروع الإسكان الحكومي.

صمتت. السلسلة انزلقت. الباب فُتح أكثر.

— ادخل.

دخل. أغلقت الباب خلفه بالمفتاح والمزلاج في حركة سريعة ومتقنة. الممر ضيق ورائحة الرطوبة القديمة تملأه. لم تكن هناك شاشات على الجدران. لا إعلانات مطبوعة على السجاد البالي. لا صوت يأتي من أي مكان.

للحظة قصيرة جداً، شعر سامي أن رئتيه اتسعتا فجأة.

قادته المرأة إلى غرفة في نهاية الممر. فتحت الباب وأشارت بيدها:

— غرفة واحدة. الحمام مشترك مع اثنين آخرين. ممنوع الطهي. تخلص من القمامة بنفسك. الإيجار ثلاثة أشهر مقدماً ونقداً.

دخل سامي. الغرفة صغيرة، سرير حديدي، خزانة خشبية قديمة، نافذة تطل على حائط المبنى المجاور. لا تلفاز. لا مذياع مدمج في الجدار. لا شاشات فرعية. السقف أبيض متسخ، بلا أي صور متحركة.

وقف في وسط الغرفة وأغلق عينيه.

الصمت.

ليس صمتاً مطلقاً. كان هناك صوت بعيد لسيارة في الشارع، وصرير خفيف في أنابيب المياه، لكن لم يكن هناك أي جملة ترويجية. لا أغنية إعلانية. لا صوت امرأة تبتسم وتبيع له شيئاً.

شعر بدموع غريبة تحرق خلف عينيه. لم يبكِ. فقط تنفس.

التفت إلى المرأة التي كانت ما تزال واقفة عند الباب تراقبُه.

— هل أستطيع تشغيل التلفاز؟ سأل وهو يعرف الجواب.

ردت بلا مبالاة:

— لا يوجد أي تلفاز أو هاتف هنا. ولا حتى مذياع. يظل يبث برامجه الإعلانية طول الليل. ولا مناظر جميلة في المرايا. ولا تمثيليات تتخللها إعلانات تظهر على السقف والجدران.

ابتسم سامي ابتسامة حقيقية هذه المرة، ووضع قيمة الإيجار نقداً في يدها.

— متى يمكنني أن أستخدم الغرفة؟

هزت كتفيها:

— في أي وقت تشاء. خذ المفتاح. الطابق الأرضي في الأمام. لا توجد مصاعد.

ناولته مفتاحاً كبيراً قديماً. أمسكه بقوة كأنه شيء ثمين.

خرجت المرأة وأغلقت الباب خلفها. سمع خطواتها تبتعد في الممر، ثم صوت باب آخر يُفتح ويُغلق.

سامي جلس على حافة السرير. النوابض صرخت تحت وزنه. نظر حوله مرة أخرى. الجدران فارغة. السقف فارغ. الهواء نفسه بدا مختلفاً.

وضع رأسه بين يديه وضحك ضحكة منخفضة متقطعة.

عيد ميلاده الثلاثين.

وأخيراً وجد غرفة بلا إعلانات.

لم يكن يعرف أن المرأة في الغرفة المجاورة كانت في اللحظة نفسها ترفع سماعة هاتف قديم، وتهمس في الجهة الأخرى:

— دكتورة ع تقدم تقريرها... لدينا شخص جديد. ذكر. في حوالي الثلاثين من عمره. يكره الإعلانات.

وجاءها الرد سريعاً وحاسماً من الجهة الأخرى:

— ماذا؟ يكره الإعلانات؟

— بكافة أنواعها.

— ابدئي العلاج على الفور. وتأكدي أنه سيصبح مواطناً صالحاً... يحب الإعلانات إلى حد العشق.

سامي في غرفته لم يسمع شيئاً من هذا.

كان ما يزال يجلس على السرير، يتنفسه الصمت لأول مرة منذ سنوات طويلة، ويبتسم لنفسه في الظلام النسبي للغرفة.

ظن أنه وصل أخيراً.

ولم يكن يعرف بعد أن الصمت الذي وجده... كان مجرد فخ آخر.

الفصل الرابع

المواطن غير الصالح

سامي لم يتحرك من على حافة السرير لأكثر من عشر دقائق. كان يجلس منتصب الظهر، يده ما تزال مقبوضة على المفتاح الكبير، ويحاول أن يمتص الصمت قطرة قطرة كأنه ماء بعد عطش طويل.

لم يكن الصمت مطلقاً. كان هناك صوت أنابيب قديمة في الجدران، وخطوات بعيدة في الطابق العلوي، ونباح كلب ضعيف في مكان ما من الشارع. لكن هذه الأصوات كانت بشرية، أو طبيعية، أو على الأقل غير مُسوَّقة. لم تكن تبيعه شيئاً.

ابتسم مرة أخرى، ابتسامة صغيرة وخجولة، كمن يخاف أن يفسد اللحظة إذا ابتسم بقوة أكبر.

ثم جاء الطرق على الباب.

ثلاثة طرقات متباعدة، منتظمة، رسمية.

رفع رأسه ببطء. لم يقم فوراً. انتظر. الطرقات تكررت بنفس الإيقاع.

نهض وفتح الباب.

كان الرجلان يقفان في الممر الضيق ببدلات رمادية أنيقة، خالية من أي شعارات ظاهرة. أحدهما يحمل جهازاً لوحياً رفيعاً، والآخر يقف خلفه قليلاً ويداه خلف ظهره. لم يكونا مسلحين بشكل واضح، لكن حضورهما كان كافياً.

الرجل الأول ابتسم ابتسامة مهنية باردة:

— السيد سامي عادل؟

سامي لم يجب. فقط نظر إليهما.

— نحن من هيئة الصحة الإعلانية. القسم الوقائي. هل تسمح لنا بدقيقة من وقتك؟

حاول سامي أن يغلق الباب. يد الرجل كانت أسرع. وضع قدمه برفق لكن بحزم على العتبة.

— لا داعي للقلق. هذه مجرد زيارة روتينية. تقرير طبي وصلنا منذ قليل بخصوص حالتك.

— حالتي؟

الرجل أخرج بطاقة هوية رسمية ورفعها أمام عينيه لثانية، ثم أعادها إلى جيبه.

— نعم. هناك مؤشرات على اضطراب في التجاوب التسويقي. مستوى الرفض لديك تجاوز الحد المسموح به في القانون رقم ١٧ لسنة ٢٠١٩ المعدل. نحن هنا للمساعدة فقط.

سامي شعر أن الدم ينسحب من وجهه. الغرفة خلفه، التي كانت تبدو قبل دقائق كأنها ملاذ، أصبحت فجأة ضيقة جداً.

— أنا لست مريضاً.

الرجل هز رأسه بتعاطف مدروس:

— هذا ما يقوله معظم الحالات في البداية. الرفض نفسه جزء من الأعراض. هل تعلم أن الأغنياء فقط هم من يستطيعون شراء «تصاريح صمت» مؤقتة؟ المناطق الهادئة الحقيقية محجوزة للفئات أ و ب. أما الباقون... فالعلاج متاح ومجاني. الدولة تهتم بصحة مواطنيها.

الرجل الثاني تقدم نصف خطوة وقال بصوت أخفض:

— رجاءً لا تجعل الأمر صعباً. نحن لا نحب استخدام الإجراءات الإلزامية في عيد ميلاد أحد.

سامي نظر إلى المفتاح في يده. المفتاح الذي ظن أنه سيفتح له باباً إلى الهدوء. ضحك ضحكة قصيرة وجافة.

— حتى الصمت أصبح سلعة؟

الرجل الأول ابتسم من جديد:

— كل شيء سلعة يا سيد عادل. حتى الصحة. تعال معنا. المركز قريب. الجلسة الأولى قصيرة ولن تؤلم.

لم يقاوم. لم يكن هناك معنى للمقاومة في ممر ضيق أمام رجلين مدربين، وفي مبنى تعرف صاحبته كيف تبلغ بسرعة وكفاءة.

سار بينهما في الممر. السيدة ع كانت تقف عند باب غرفتها، ذراعاها مطويان على صدرها، ووجهها خالٍ من أي تعبير. لم تنظر إليه. فقط قالت بصوت منخفض وهما يمران:

— أنا آسفة. القانون هو القانون.

في الخارج كانت سيارة رمادية تنتظر، بلا أي إعلانات على هيكلها. هذه المرة لاحظ سامي التفاصيل: السيارات الرسمية فقط هي المعفاة من الإعلانات الإلزامية. حتى في هذا، كان هناك تمييز.

أجلسوه في المقعد الخلفي. الباب أُغلق بصوت مكتوم. السيارة انطلقت بهدوء.

من النافذة رأى المبنى القديم يبتعد. الغرفة التي قضى فيها ربع ساعة من الصمت الحقيقي تبدو الآن بعيدة كحلم قصير.

الرجل الذي يجلس إلى جواره فتح الجهاز اللوحي وبدأ يقرأ بصوت هادئ تقريراً:

— المواطن سامي عادل، ثلاثون عاماً، موظف في قسم الأرشفة الرقمية. مستوى التفاعل مع المحتوى التسويقي: ١٢٪ فقط خلال الشهر الماضي. محاولات متكررة لتعطيل الأجهزة المنزلية. بحث عن عناوين غير مرخصة لمساكن خالية من الوسائط. توصية اللجنة: إعادة تأهيل فوري من الدرجة الثانية.

سامي نظر إلى الشارع يمر. الإعلانات عادت تملأ كل شيء من جديد: الشاشات، السيارات، حتى وجوه المارة التي كانت تعكس إضاءة الشاشات العملاقة.

همس لنفسه، بصوت لا يكاد يُسمع:

— كل ما أردته... دقيقة واحدة بلا صوت.

الرجل إلى جواره سمعه. أجاب بهدوء، وكأنه يصحح معلومة علمية:

— الدقيقة الواحدة هي البداية. بعدها يطلب المريض دقيقتين، ثم ساعة، ثم يوماً كاملاً. هذا مسار انحداري معروف. نحن نوقفه مبكراً من أجل مصلحتك.

سامي لم يرد.

أغمض عينيه واستعاد للحظة قصيرة صوت الأنابيب القديمة في الغرفة، وصرير النوابض تحت وزنه، والجدار الأبيض المتسخ الذي لم يبع له شيئاً.

ثم فتحهما من جديد.

السيارة كانت قد دخلت بوابة كبيرة تحمل لافتة أنيقة مضيئة:

مركز إعادة التأهيل الإعلاني – الفرع الثالث

«نحو مواطن متجاوب وصحّي»

الباب الحديدي انغلق خلفهم بهدوء.

الفصل الخامس

غرفة العلاج

الممر الذي ساروا فيه بعد البوابة كان أبيض ناصعاً وبارداً. الجدران لامعة بلا أي إعلانات ظاهرة، وهذا وحده جعل سامي يشعر بالارتباك. حتى في مركز يعالج رفض الإعلانات، كانت المساحات الرسمية خالية منها. كأنها امتياز خاص بالعاملين على النظام.

أجلسوه على كرسي معدني في غرفة استقبال صغيرة. امرأة بجلباب أبيض قصير وشعر مربوط بإحكام شديد جلست خلف مكتب زجاجي وبدأت تسأله أسئلة روتينية دون أن ترفع عينيها عن الشاشة:

— الاسم الكامل؟

— سامي عادل محمد.

— العمر؟

— ثلاثون.

— هل تعاني من أي حساسية دوائية معروفة؟

— لا.

— هل سبق أن خضعت لجلسات إعادة تأهيل إعلاني من قبل؟

— لا.

همهمت المرأة موافقة، ثم مدت يده جهازاً صغيراً يشبه الساعة. ثبّته حول معصم سامي الأيسر. الجهاز أصدر صوتاً خفيفاً وبدأ يعرض على شاشته الصغيرة معدل ضربات قلبه ومستوى التوتر ونسبة الأكسجين.

— هذا الجهاز سيرافقك طوال فترة الإقامة. يقيس استجابتك لحظياً. لا تحاول خلعه.

قادوه بعد ذلك إلى غرفة في نهاية ممر جانبي. الباب انزلق تلقائياً. الغرفة مربعة، حوالي أربعة أمتار في أربعة. سرير ضيق في الوسط، جدران بيضاء بالكامل، سقف أبيض، أرضية بيضاء. لا نوافذ.

اللحظة التي أغلق فيها الباب، اشتغلت الجدران.

لم تكن شاشات عادية. الجدران الأربعة والسقف تحولت كلها إلى سطوح عرض متصلة. في أقل من ثانية امتلأت الغرفة بصور وأصوات.

فتاة تبتسم وتشرب حليباً.

رجل سعيد يقود سيارة جديدة.

طفل يضحك وهو يأكل قطعة شوكولاتة.

امرأة أنيقة تعرض عطراً.

جمل قصيرة تتكرر بأصوات مختلفة:

— أنت تستحق الأفضل.

— لماذا تحرم نفسك؟

— السعادة اختيار، والاختيار يبدأ من هنا.

— ارفض الرفض.

الصوت لم يكن مرتفعاً جداً، لكنه كان يحيط به من كل اتجاه. لا زاوية يهرب إليها. لا ظل يستريح فيه.

جلس سامي على السرير. حاول أن يغلق عينيه. الصور استمرت خلف جفنيه كأنها محفورة في الهواء.

بعد ربع ساعة دخلت فتاة صغيرة السن بجلباب أبيض تحمل صينية فيها كوب ماء وحبتان زرقاوان.

— هذا مهدئ خفيف ومُحسِّن للاستجابة. تعليمات الطبيب.

سامي نظر إلى الحبتين.

— لا أريد.

الفتاة ابتسمت ابتسامة مدربة:

— الرفض نفسه عرض. تناولهما من فضلك. الجهاز على معصمك سيسجل الامتناع.

أخذ الحبتين ووضعهما في فمه. بلع. الطعم كان معدنياً خفيفاً.

بعد أقل من عشر دقائق بدأ يشعر بدفء غريب في صدره. الصور على الجدران أصبحت أوضح، والأصوات أقرب. الجمل الإعلانية بدأت تتسلل إلى أفكاره كأنها أفكاره هو.

حاول أن يقاوم. ركز في ذكرى الغرفة القديمة في بيت السيدة ع. صوت الأنابيب. صرير النوابض. الجدار المتسخ الأبيض. حاول أن يتمسك بتلك الصورة بقوة.

لكن الجدران كانت أذكى.

فجأة تغير المحتوى. ظهرت صور شخصية. شقته القديمة. وجه ندى كما كانت قبل أن تُعالَج. وجه والدته وهي تقول إن الأكل يحتاج إلى صمت. ثم ظهرت هذه الصور نفسها وهي تتحول تدريجياً: ندى تبتسم وهي تمسك منتجاً، والدته تجلس إلى مائدة مليئة بعلب كرتونية عليها شعارات، الغرفة الهادئة تمتلئ فجأة بشاشات.

الخوارزمية كانت تقرأ ذكرياته عبر الجهاز على معصمه، أو عبر كاميرات مخفية، أو عبر شيء آخر لم يفهمه. ثم تعيد صياغتها وتبيعها له من جديد.

همس بصوت أجش:

— توقفوا...

لم يتوقف شيء.

مرت ساعة. أو ساعتان. فقد الإحساس بالوقت. الإعلانات لم تنقطع. عندما كان يغفو للحظات قصيرة كانت الصور تتسلل إلى أحلامه مباشرة: كوابيس ترويجية نظيفة ومرتبة، ينتهي كل منها بجملة تدعوه للشراء أو للقبول أو للابتسام.

استيقظ مرة على صوت طرقة خفيفة على الباب. دخل رجل بجلباب أبيض ونظارات طبية دقيقة.

— السيد عادل؟ أنا الدكتور رامي من فريق المتابعة. مستوى الرفض لديك انخفض بنسبة ٨٪ خلال الساعتين الأخيرتين. هذا جيد. غداً نرفع كثافة المحتوى ونضيف طبقة الأحلام الموجهة. لا تقلق. معظم الحالات يستجيبون خلال ثلاثة إلى خمسة أيام.

سامي حاول أن يتكلم. صوته خرج مبحوحاً:

— أنا لست... حالة.

الدكتور ابتسم ابتسامة متعاطفة قصيرة:

— بالطبع لستَ. أنت مواطن نساعده على التكيف. استرح الآن. الجدران ستخفض الإضاءة قليلاً خلال ساعة النوم الرسمية، لكن المحتوى سيستمر في الخلفية. الجسم يحتاج إلى الراحة حتى يستقبل الرسائل بشكل أفضل.

خرج الدكتور. الباب انزلق وأغلق.

سامي استلقى على ظهره وحدّق في السقف الذي كان يعرض الآن رجلاً سعيداً جداً وهو يستخدم مزيل عرق جديداً.

شعر بالإرهاق يتسلل إلى عظامه. ليس إرهاق الجسد فقط، بل إرهاق أعمق. إرهاق من المقاومة نفسها.

حاول مرة أخيرة أن يستحضر صوت الصمت الذي سمعه في الغرفة القديمة.

الصوت كان بعيداً هذه المرة. أضعف. كأنه يأتي من خلف جدار سميك من الجمل الإعلانية.

أغمض عينيه.

والجدران استمرت في البيع.

الفصل السادس

الحليف

في اليوم الثالث داخل المركز، سُمح لسامي بمغادرة غرفته لمدة أربعين دقيقة.

«وقت النشاط الاجتماعي المنظم»، كما كتب على الجدول الرقمي الذي يظهر على باب كل غرفة.

الممر الذي سار فيه كان أطول مما تذكر. الجدران هنا أيضاً بيضاء، لكن الإعلانات كانت أخف كثافة، كأنها خلفية موسيقية هادئة بدلاً من الهجوم المباشر. في نهاية الممر قاعة مستطيلة فيها طاولات معدنية وكراسي ثابتة. عشرة أشخاص أو أقل كانوا جالسين، معظمهم يحدقون في الفراغ أو في أيديهم.

جلس سامي في زاوية بعيدة. وضع الصينية أمامه: حساء خفيف وقطعة خبز وعلبة عصير عليها شعار كبير. لم يفتح العلبة.

بعد دقائق جاءت فتاة وجلست في الكرسي المقابل له مباشرة. شعرها أسود قصير، عيناها داكنتان ومرهقتان، وعلى معصمها نفس الجهاز الذي يحمله هو. لم تبتسم. فقط وضعت صينيتها بهدوء وقالت بصوت منخفض جداً، دون أن ترفع نظرها:

— لا تشرب العصير. فيه جرعة إضافية اليوم.

سامي رفع عينيه ببطء. الفتاة كانت تنظر إلى طعامها كأنها تتحدث إلى نفسها.

— من أنت؟

— ليلى. غرفة ١٧. أنت الغرفة ٩، صحيح؟ وصل تقريرك قبل ثلاثة أيام. الجميع عرف.

صمت لحظة، ثم أضافت وهمسها بالكاد مسموع فوق صوت الإعلانات الخفيفة في السقف:

— أنت ما زلت تقاوم. يظهر ذلك في عينيك. معظمهم يفقدون هذا الشيء في اليوم الثاني.

سامي شعر بشيء يتحرك في صدره. حذر وخوف وأمل صغير مريض.

— لماذا تقولين لي هذا؟

ليلى كسرت قطعة الخبز بأصابعها ببطء.

— لأنني جربت أن أقاوم وحدي لمدة أحد عشر يوماً. ثم انكسرت. والآن أنا هنا للمرة الثانية. هذه المرة لن أنكسر وحدي.

رفع سامي نظره إلى الكاميرات الصغيرة في زوايا القاعة. ليلى لاحظت وأكملت بصوت أخفض:

— الكاميرات تسجل الصورة والصوت، لكن الخوارزمية تركز على الكلمات المفتاحية: «رفض»، «صمت»، «هروب»، «قتل الإعلان». إذا تحدثنا بجمل عادية، نمر. قل لي مثلاً: كيف تجد الحساء؟

— بارد قليلاً — قال سامي وهو يفهم اللعبة.

— نعم. والخبز ناشف. لكن يمكن احتماله إذا فكرت في شيء آخر. أنا أفكر أحياناً في الكتب.

رفع سامي حاجبيه قليلاً.

— كتب؟

— ورقية. حقيقية. فيها كلمات لا تتغير كل ثلاث ثوانٍ. أعرف شخصاً هنا يخفي ثلاثة منها خلف لوحة التهوية في غرفته. وشخصاً آخر احتفظ بجهاز راديو قديم يعمل بالموجات الحقيقية، لا بالبث الإلزامي. نحن قلة. أربعة أو خمسة فقط في هذا الفرع. نلتقي أحياناً في دورة المياه الغربية في الطابق السفلي. الساعة الثالثة فجراً، عندما تكون كثافة المراقبة في أدنى مستوياتها.

سامي شعر أن قلبه ينبض بشكل أسرع. الجهاز على معصمه سجل ذلك بالتأكيد، لكنه لم يقل شيئاً.

— وماذا تريدون؟

ليلى نظرت إليه أخيراً. عيناها لم تكونا يائستين تماماً.

— أن نخرج. ليس إلى الشارع العادي. إلى مكان أبعد. هناك مجموعة صغيرة خارج المراكز. يسمون أنفسهم «الصامتون». يعيشون في مناطق الإشارة فيها ضعيفة، ويستخدمون أجهزة قديمة، ويتبادلون ورقاً حقيقياً. يحلمون بيوم يعود فيه الصمت ممكناً لساعات كاملة دون أن يُعتبر مرضاً.

صمتت قليلاً، ثم أضافت:

— أنت جديد، وما زال مستوى الرفض لديك مرتفعاً نسبياً. هم يحتاجون إلى ناس مثلنا. وإذا نجحت خطة الخروج... قد نصل إليهم.

سامي نظر إلى الحساء البارد أمامه. الصور الإعلانية على الجدران كانت ما تزال تتحرك، والجمل الترويجية ما تزال تهمس من السقف. لكنه لأول مرة منذ دخوله المركز شعر أن هناك شيئاً آخر يتحرك تحت السطح.

— متى؟

ليلى ابتسمت ابتسامة صغيرة جداً، شبه خفية.

— قريباً. اليوم أو غداً سأمرر لك الإشارة. فقط لا تتوقف عن المقاومة تماماً. دعهم يظنون أنك تتحسن ببطء. هذا يعطينا وقتاً.

رفعت صينيتها وهمت بالوقوف، ثم توقفت لحظة وقالت بصوت عادي هذه المرة، كأنها تكمل حديثاً عن الطعام:

— الحساء فعلاً بارد. لكن المرء يعتاد.

ثم ابتعدت.

سامي بقي جالساً. الجهاز على معصمه كان يومض بضوء برتقالي خفيف، يسجل ارتفاع نبضه. لكنه لم يهتم.

لأول مرة منذ أن أُغلق عليه باب الغرفة البيضاء، لم يكن وحيداً تماماً داخل رأسه.

كان هناك صوت آخر الآن. صوت بشري. صوت يعرف معنى أن تكره الإعلانات حتى العظم.

ابتسم ابتسامة صغيرة مريضة إلى الحساء البارد.

ثم رفع الملعقة وبدأ يأكل ببطء، وهو يفكر في الكتب الورقية، والراديو القديم، والساعة الثالثة فجراً.

خارج القاعة، كانت الجدران البيضاء ما تزال تبيع السعادة الجاهزة.

لكن داخل رأس سامي، بدأت جملة جديدة تتشكل بهدوء:

ربما... الصمت ما زال ممكناً.

الفصل السابع

الخروج

الإشارة جاءت في الليلة الرابعة.

كانت الساعة تقترب من الثانية والنصف فجراً عندما سمع سامي صوتاً خفيفاً جداً خلف لوحة التهوية في أعلى الجدار. لم يكن صوتاً إعلانياً. كان صوتاً بشرياً، همساً واحداً مكرراً ثلاث مرات:

— الآن.

نهض من السرير ببطء. الغرفة ما تزال تعرض صوراً باهتة في وضع «الليل المنخفض»، والجمل الترويجية تهمس كأنها أحلام شخص آخر. خلع الجهاز من معصمه بحركة سريعة ومدروسة، كما علمته ليلى في اللقاء القصير السابق. الجهاز أصدر صوتاً تحذيرياً خافتاً ثم صمت عندما وضعه داخل كأس الماء على الطاولة. دقيقة واحدة أو اثنتان قبل أن يُطلق إنذاراً حقيقياً.

الباب انزلق برفق من الخارج. ليلى كانت تقف في الممر، وإلى جانبها رجل في منتصف العمر يرتدي جلباب العاملين الأبيض. وجهه شاحب ومتعَب، وعلى صدره بطاقة اسم غير واضحة في الضوء الخافت.

— هذا كريم — همست ليلى. — يعمل في قسم الصيانة الليلية. معنا منذ سبعة أشهر.

كريم لم يقل شيئاً. فقط أشار لهما أن يتبعاه. ساروا في الممرات الجانبية الضيقة، بعيداً عن الكاميرات الرئيسية. كلما اقتربوا من زاوية فيها مستشعر حركة، كان كريم يمرر بطاقة خاصة على جهاز صغير فيده، فتنطفئ الإشارة الحمراء لثوانٍ كافية للمرور.

وصلوا إلى باب خلفي حديدي في الطابق السفلي. كريم فتحه بمفتاح قديم، ثم نظر إلى سامي وقال بصوت أجش:

— بعد هذا الباب لا أستطيع مساعدتكما. السور الخارجي فيه ثغرة خلف مبنى المولدات. بعد ذلك أنتما وحدكما. حظاً موفقاً... ولا تتأخرا.

خرج سامي وليلى إلى الليل.

الهواء الخارجي كان بارداً ورطباً. للحظة قصيرة وقف سامي ساكناً يتنفسه بعمق، كأن رئتيه كانتا مغلقتين منذ أيام. ثم لمس ذراعه ليلى فتحركا.

تسلقا السور من الثغرة التي أشار إليها كريم. هبطا في زقاق خلفي مظلم. الشارع الرئيسي على بُعد خمسين متراً كان ما يزال مضيئاً بالشاشات العملاقة، لكن الأزقة الجانبية كانت أهدأ نسبياً في هذا الوقت.

ساروا بسرعة متوسطة، لا يركضان حتى لا يلفتا الانتباه. ليلى كانت تعرف الطريق. كانت تقود، وهو يتبع. كلما اقتربوا من تقاطع فيه كاميرات ذكية، كانت تهمس:

— اخفض رأسك. لا تنظر إلى الشاشات مباشرة. بعض الإعلانات الجديدة تمسح الوجوه.

في أحد الشوارع اضطروا إلى الاختباء خلف حاوية قمامة كبيرة عندما مرت دورية راجلة بطيئة. سامي سمع صوت الإعلانات يخرج من سماعات الدورية نفسها: جمل عن الأمن والسلامة والرضا الوظيفي. بعد أن ابتعدت الدورية، تابعا السير.

المدينة في هذه الساعة كانت غريبة. الشاشات ما تزال تعمل، لكنها أقل عدوانية. معظم الناس نيام، والإعلانات تتحدث إلى الشوارع الفارغة كأنها تؤدي واجباً روتينياً. سامي شعر أن الإعلانات نفسها متعبة.

بعد أكثر من ساعة من المشي والاختباء والانعطاف في أزقة ضيقة، بدأت المباني تتباعد. الإضاءة قلت. الشاشات أصبحت نادرة ثم اختفت تقريباً. وصلوا إلى منطقة صناعية قديمة على أطراف المدينة: مستودعات مهجورة، سكك حديدية صدئة، وأراضٍ خالية من أي إعلان مضيء.

ليلى توقفت أمام باب حديدي كبير في جدار مستودع منخفض. طرقت عليه بطريقة معينة: مرتين، ثم ثلاثة، ثم مرة واحدة.

بعد لحظة فُتح الباب قليلاً. وجه رجل ملتحٍ ظهر في الفتحة، نظر إليهما طويلاً، ثم فتح الباب أكثر.

— ليلى؟

— نعم. ومعي شخص جديد. مستوى رفضه ما زال عالياً.

الرجل حدّق في سامي لحظة، ثم تنحى جانباً.

— ادخلا بسرعة.

دخلا. الباب أُغلق خلفهما بثقل، وانقطع صوت المدينة فجأة.

المكان من الداخل كان واسعاً ومعتماً، تُضاءه مصابيح كهربائية صفراء قديمة معلقة في السقف. رائحة الزيت والغبار والورق الرطب. في الزاوية طاولات خشبية عليها

أجهزة راديو قديمة وكتب مكدسة وأوراق مكتوبة بخط اليد. ثلاثة أو أربعة أشخاص كانوا جالسين أو واقفين، ينظرون إليهما بصمت حذر.

سامي وقف في مكانه، يحاول أن يستوعب.

لا شاشات على الجدران.

لا جمل ترويجية تهمس من السقف.

لا صوت يبيعه شيئاً.

فقط صمت بشري حقيقي، مثقل بالتعب والخوف والأمل الهش.

ليلى لمست ذراعه بلطف وقالت بصوت خافت:

— مرحباً بك في الجانب الآخر.

سامي لم يرد فوراً. كان ينظر إلى الكتب الورقية المكدسة، وإلى الجهاز الراديو القديم الذي يصدر الآن صوت موجات خفيفة غير مفهومة، وإلى الوجوه التي تنظر إليه دون أن تبتسم له ابتسامة إعلانية.

للمرة الثانية منذ عيد ميلاده، شعر أن رئتيه تتسعان.

ثم همس، كأنه يخاف أن يفسد اللحظة:

— هل... هذا حقيقي؟

أحد الجالسين، رجل في الأربعين بشعر أشيب، أجاب بصوت هادئ:

— بقدر ما يستطيع الواقع أن يكون حقيقياً هنا. اجلس. أنت متعب. والقصة طويلة.

سامي جلس.

وخارج المستودع، في المدينة البعيدة، كانت الشاشات ما تزال تعمل بلا توقف، تبحث عن وجوه جديدة لتبيع لها السعادة.

الفصل الثامن

جماعة الصمت

الرجل الأشيب الذي تحدث أولاً كان يُدعى حامد.

كان في السابق مهندس أنظمة في إحدى الشركات الكبرى التي تطور خوارزميات الإعلانات الشخصية. عمل هناك تسع سنوات، حتى اكتشف أن النظام لا يكتفي ببيع المنتجات. كان يبيع السلوك. يعدل المزاج الجماعي، يرفع معدلات القبول السياسي في أوقات معينة، ويخفف من حدة الاحتجاجات قبل أن تبدأ. عندما حاول أن ينشر ما يعرفه، اختفى تقريره، ونُقل هو إلى «إجازة طبية إجبارية». خرج من المركز بعد شهرين، لكنه لم يعد أبداً إلى حياته السابقة.

إلى جانبه جلست امرأة في أواخر الثلاثينيات، صوتها أجش ومتقطع كأنها تتحدث من خلف جدار. اسمها سارة. كانت معلمة لغة عربية. أحبت أن تقرأ لطلابها قصائد قديمة بلا صور متحركة ولا جمل ترويجية بين الأبيات. بدأت تشكو من الصداع المزمن ومن فقدان قدرتها على التركيز. التشخيص الرسمي: «حساسية مفرطة تجاه المحتوى غير التجاري». خضعت للعلاج مرتين. في المرة الثانية فقدت معظم صوتها. قالت لسامي وهي تبتسم ابتسامة مكسورة:

— الآن أتكلم قليلاً... وهذا أفضل. الكلمات الكثيرة كانت تُباع أيضاً.

في الزاوية البعيدة كان يجلس صبي لا يتجاوز الرابعة عشرة. اسمه يوسف. وُلد بعد أن أصبح النظام الإعلاني إلزامياً بالكامل. لم يعرف عالماً آخر. أُدخل إلى المراكز ثلاث مرات قبل أن يبلغ الثانية عشرة لأن معلميه لاحظوا أنه «يفضل الصمت على المشاركة التفاعلية». الآن هو مع الجماعة منذ سبعة أشهر. يتكلم قليلاً، ويحمل معه دفترًا صغيراً يكتب فيه كلمات يسمعها من الراديو القديم أو من الكتب الورقية. قال لسامي وهو ينظر إلى الأرض:

— أنا لا أكره الإعلانات فقط. أنا لا أفهمها. لماذا يجب أن أسمعها حتى وأنا نائم؟

كان هناك اثنان آخران: رجل نحيل يعمل سابقاً في صيانة الشبكات، وامرأة قصيرة تُدعى منى كانت تدير في الماضي مكتبة ورقية صغيرة قبل أن تُغلق بقرار رسمي.

جلسوا حول طاولة خشبية طويلة. مصباح واحد يضيء وجوههم من الأعلى. ليلى قدمت سامي باختصار، ثم صمتت. الجميع كان ينتظر أن يتكلم حامد.

حامد فتح مجلداً قديماً مليئاً بأوراق مطبوعة وصور وخرائط، ودفعه إلى وسط الطاولة.

— الإعلانات ليست الهدف. هي الوسيلة.

بدأ يشرح بهدوء، كمن يعيد درسًا حفظه جيداً:

النظام يستخدم الكثافة الإعلانية لشيئين أساسيين. الأول: إبقاء الناس في حالة استهلاك دائم، حتى لا يتوقفوا ليسألوا أسئلة أكبر. الثاني: التغطية. كلما ارتفعت معدلات التلوث في منطقة معينة، أو انخفضت المياه، أو ارتفعت البطالة الحقيقية، زادت كثافة الإعلانات هناك. الشاشات تضيء أكثر، والجمل تصبح أكثر إلحاحاً، والناس ينشغلون بالشراء أو بالحلم بالشراء. الأزمات تُدار بالصوت والصورة بدلاً من أن تُحل.

أشار إلى خريطة:

— انظر هنا. المناطق التي شهدت أكبر احتجاجات صامتة قبل ست سنوات هي نفسها التي حصلت على أعلى ميزانيات «تطوير المحتوى التسويقي». والنتائج؟ الاحتجاجات اختفت. والمبيعات ارتفعت. والناس أصبحوا... أكثر تكيفاً.

سامي شعر ببرودة في معدته. كان يظن أنه يهرب من إزعاج شخصي. الآن يكتشف أنه كان يهرب من آلة أكبر بكثير.

سارة أضافت بصوتها المبحوح:

— هم لا يريدوننا أن نكره الإعلانات لأن الكراهية مُعدية. إذا بدأ عدد كافٍ من الناس يرفضون الاستماع، قد يبدأون في رفض أشياء أخرى. الرفض نفسه هو الخطر.

صمت الجميع لحظة. يوسف كان يكتب شيئاً في دفتره بسرعة.

حامد نظر إلى سامي مباشرة:

— أنت وصلت إلى هنا لأنك ما زلت قادراً على الرفض. هذا نادر. السؤال الآن: ماذا تريد أن تفعل؟

سامي لم يجب فوراً. نظر إلى الوجوه حول الطاولة. إلى ليلى التي كانت تراقبُه بصمت. إلى الكتب الورقية المكدسة. إلى الراديو القديم الذي يصدر الآن صوت موجات ضعيفة كأنه يتنفس.

— أنا... أردت فقط مكاناً أستطيع أن أفكر فيه بلا ضجيج.

حامد هز رأسه ببطء.

— هذا ما أراده معظمنا في البداية. ثم اكتشفنا أن المكان الهادئ لا يبقى هادئاً طويلاً إذا لم ندافع عنه. هم يبحثون دائماً. والمراكز تتوسع. والتصاريح الخاصة بالصمت أصبحت أغلى سنة بعد سنة. إذا اكتفينا بالاختباء، سننقرض بهدوء.

ليلى تدخلت لأول مرة منذ أن جلسوا:

— سامي ما زال جديداً. لا تضغط عليه الليلة.

حامد رفع يده مسالمًا.

— لا أضغط. أنا أعرض فقط. هناك خياران. الأول: تبقى هنا فترة، تتعلم كيف نعيش، ثم تبحث عن مكان أبعد إذا أردت. الثاني: تنضم. معنا خطة صغيرة قادمة. ليست بطولية. فقط محاولة لتعطيل أحد أبراج البث الرئيسية لمدة ساعات. لنعطي الناس في حي كامل ليلة واحدة بلا إعلانات إجبارية. ربما يتذكر بعضهم كيف كان الصوت قبل أن يُباع.

سامي أسند مرفقيه إلى الطاولة وأغلق عينيه لحظة.

رأى الغرفة البيضاء في المركز.

رأى وجه ندى بعد العلاج.

رأى والدته وهي تحاول أن تغلق التلفاز في زمن كان الإغلاق فيه ممكناً.

ورأى نفسه في عيد ميلاده وهو يبحث عن دقيقة واحدة من الصمت.

فتح عينيه.

— إذا انضممت... هل سأفقد ما تبقى من هدوئي؟

حامد أجاب بصدق مؤلم:

— على الأرجح. الهدوء الحقيقي أصبح رفاهية باهظة الثمن. لكن ربما نشتري لغيرنا ساعات قليلة منه.

سامي نظر إلى ليلى. هي لم تقل شيئاً، لكن عينيها كانت تقول إنها اختارت منذ زمن.

ثم نظر إلى يوسف الذي كان ما يزال يكتب في دفتره الصغير.

همس سامي، كأنه يتحدث إلى نفسه أولاً:

— أخبروني عن الخطة.

خارج المستودع كان الليل عميقاً.

وداخل المدينة البعيدة، كانت الشاشات ما تزال تبحث عن وجوه جديدة لتحولها إلى مستهلكين صالحين.

الفصل التاسع

الثمن

الهجوم جاء قبل الفجر بساعة.

لم يكن هناك إنذار مسبق. فقط صوت معدني حاد اخترق سقف المستودع فجأة، ثم أضواء بيضاء قوية اجتاحت المكان من كل الجهات. صوت مكبرات عالية أعلن جملة واحدة متكررة:

— هذا تفتيش أمني روتيني. ابقوا في أماكنكم. المقاومة عديمة الجدوى.

حامد نهض أولاً. صوته كان هادئاً بشكل غريب وسط الفوضى:

— ادخلوا إلى المخبأ السفلي. بسرعة.

لم يصلوا جميعاً.

الباب الحديدي الرئيسي انفتح بقوة. رجال ببدلات رمادية وواقيات رأس دخلوا في تشكيل منضبط. بعضهم يحمل أجهزة لوحية، والبعض الآخر يحمل عصيّاً كهربائية قصيرة. لم يطلقوا رصاصاً. النظام لم يعد يحتاج إلى دماء كثيرة. كان يفضل إعادة التأهيل.

سارة حاولت أن تصل إلى الدرج الخلفي. أُمسكت من ذراعها وطُرحت أرضاً بهدوء احترافي. يوسف اختبأ خلف صناديق خشبية، لكن أحد الأجهزة اللوحية التقط حرارته فوراً. سُحب وهو يعض على شفته حتى لا يصرخ.

ليلى أمسكت يد سامي وسحبته نحو زاوية مظلمة حيث كانت هناك فتحة تهوية واسعة نسبياً.

— ادخل. الآن.

سامي تردد لثانية. نظر إلى حامد الذي كان يقف في وسط القاعة رافعاً يديه، وإلى منى التي كانت تحاول حماية الكتب الورقية بجسدها كأنها تستطيع ذلك.

— ادخل يا سامي — همست ليلى بقوة. — واحد منا على الأقل يجب أن يخرج.

دفعته. زحف داخل الفتحة. كانت ضيقة ومليئة بالغبار. سمع خلفه صوت ليلى وهي تقول لشخص ما:

— أنا هنا. لا تقاوموا.

ثم صرخات مكتومة، وأصوات أجهزة، وجمل أوامر قصيرة.

زحف سامي إلى أن خرج من الجانب الآخر للجدار، في زقاق خلفي ضيق. الهواء الخارجي كان بارداً. ركض دون أن يعرف إلى أين. خلفه كانت الأضواء ما تزال تمسح المستودع.

قطع مسافة قصيرة ثم اختبأ خلف حاوية صدئة. قلبه كان يضرب بعنف لدرجة أنه ظن أن الجهاز الذي خلعه سابقاً ما يزال على معصمه يسجّل كل شيء.

بعد دقائق ظهرت سيارات رمادية إضافية. رأى من بعيد كيف يُخرجونهم واحداً تلو الآخر: حامد، سارة، يوسف، منى، والرجل النحيل. ليلى كانت آخر من خرج. يداها مقيدتان أمامها، ورأسها مرفوع.

سامي شعر أن شيئاً يتمزق داخله.

لم يتحرك. أي خطوة إضافية كانت تعني أن يُقبض عليه هو أيضاً. بقي متجمداً حتى انطلقت السيارات وأصبح المكان هادئاً من جديد. ثم تحرك.

سار ساعات. تاه في المناطق الصناعية المهجورة، ثم في أطراف أحياء فقيرة، ثم وجد نفسه مع شروق الشمس يقف أمام بوابة مألوفة دون أن يخطط لذلك.

بوابة مركز إعادة التأهيل الإعلاني – الفرع الثالث.

لم يدخل بنفسه. الدوريات كانت قد بدأت تبحث عن الهاربين منذ الفجر. أُمسك به عند أحد الحواجز الجانبية بهدوء، كأنه مجرد مواطن ضائع. لم يقاوم هذه المرة. لم يعد لديه قوة للمقاومة الظاهرة.

أعادوه إلى الغرفة البيضاء نفسها.

الجدران اشتغلت فور إغلاق الباب. الصور أجمل وأكثر كثافة من قبل. الجمل الإعلانية أذكى، كأنها تعلمت من هروبه. ظهرت وجوه جديدة: وجه ليلى وهي تبتسم ابتسامة إعلانية مثالية وتمسك منتجاً ما، وجه حامد وهو ينصح بـ«التكيف الصحي»، وجه يوسف وهو يضحك سعيداً أمام شاشة.

سامي جلس على السرير وحدّق في الصور.

كان أكثر كسراً مما كان عليه في المرة الأولى. الخسارة كانت حقيقية هذه المرة. الوجوه التي عرفها واختفت. الصوت البشري الذي سمعه في المستودع وانقطع.

لكنه كان أيضاً أكثر تصميماً.

في مكان ما داخل الصدر المرهق، بقيت جملة حامد تتردد:

«الهدوء الحقيقي أصبح رفاهية باهظة الثمن. لكن ربما نشتري لغيرنا ساعات قليلة منه.»

وضع رأسه بين يديه. الجدران كانت تبيع وتبيع وتبيع.

وهو، هذه المرة، لم يعد يبحث عن دقيقة صمت لنفسه فقط.

كان يبحث عن طريقة ليسرق الصمت من النظام ويعيده إلى الآخرين، حتى لو دفع الثمن كاملاً.

الجهاز الجديد الذي ثبّتوه على معصمه بدأ يسجل ارتفاع نبضه من جديد.

والجدران، كالعادة، لم تتوقف.

الفصل العاشر

المواطن الصالح

في اليوم السادس بعد عودته، لاحظ الدكتور رامي أن مؤشرات سامي قد تحسنت بشكل ملحوظ.

— مستوى الرفض انخفض إلى ٢٩٪ — قال وهو ينظر إلى الجهاز اللوحي. — هذا تقدم ممتاز. نرفع الكثافة الليلة إلى المستوى الرابع.

سامي لم يرد. كان جالساً على السرير، ينظر إلى الجدران التي تعرض الآن سلسلة متصلة من الإعلانات الشخصية. الوجوه التي تظهر لم تعد غريبة تماماً. بعضها يشبه أشخاصاً عرفهم. بعضها يشبهه هو.

في البداية كان يقاوم بتكرار أسماء: ليلى، حامد، سارة، يوسف. كان يتمتم بها كأنها تعويذة. لكن الأسماء بدأت تفقد وزنها تدريجياً. أصبحت أصواتاً بعيدة، ثم صوراً باهتة، ثم مجرد كلمات لا تعلق في الذاكرة أكثر من جملة إعلانية عابرة.

الدواء تغير أيضاً. الحبوب لم تعد زرقاء فقط. أصبحت هناك حبوب خضراء في الصباح، وبيضاء قبل النوم. بعد كل جرعة كان يشعر بدفء لطيف ينتشر في صدره. الدفء كان يجعل الصور أجمل، والأصوات أنعم، والجمل الترويجية... أقرب إلى الحقيقة.

في إحدى الليالي استيقظ على جملة تدور في رأسه دون أن يعرف من أين جاءت:

«الرفض يُتعب. القبول يريح.»

حاول أن يطردها. فشلت المحاولة. الجملة عادت مرات، ثم استقرت.

بدأ يلاحظ تغييراً غريباً. عندما كانت الجدران تعرض إعلاناً عن مشروب غازي جديد، كان يشعر برغبة خفيفة في تذوقه. عندما يظهر عطر، كان يتخيل رائحته بوضوح. وعندما تظهر عائلة سعيدة تجلس أمام شاشة كبيرة، كان يشعر بشيء يشبه الحنين... لا إلى العائلة، بل إلى الشاشة نفسها.

الذكريات القديمة بدأت تتآكل من الأطراف.

وجه ندى أصبح أقل وضوحاً. صوت والدته وهي تقول إن الأكل يحتاج إلى صمت بات يأتي مشوشاً، كأنه تسجيل قديم تداخلت معه أغنية إعلانية. حتى وجه ليلى، الذي كان يحمله كآخر دليل على أن شيئاً حقيقياً قد حدث، بدأ يبتسم في خياله ابتسامة إعلانية نظيفة.

في اليوم التاسع جلس الدكتور رامي أمامه وقال بابتسامة راضية:

— أنت تستجيب جيداً. كثير من الحالات يحتاجون إلى أسبوعين إضافيين للوصول إلى هذه المرحلة. كيف تشعر؟

سامي فكر قبل أن يجيب. الكلمات خرجت ببطء:

— أشعر... أن الضجيج لم يعد مؤلماً كما كان.

— ممتاز. هذا يعني أن الجهاز العصبي بدأ يتقبل الإيقاع الطبيعي للبيئة. قريباً ستخرج من هنا مواطناً متوازناً. قادراً على الاستمتاع بما يقدمه النظام.

بعد أن خرج الدكتور، بقي سامي وحيداً مع الجدران.

هذه المرة لم يحاول أن يغلق عينيه. راقب الإعلانات بتركيز. فتاة تبتسم. رجل يقود سيارة. طفل يضحك. جملة تتكرر:

— أنت تستحق أن تكون سعيداً.

— السعادة متاحة.

— فقط تقبّل.

شعر بلذة غريبة صغيرة. لذة الاعتراف. لذة أن يتوقف عن المقاومة. المقاومة كانت مرهقة. القبول كان ناعماً ودافئاً وسهلاً.

للحظة طويلة جداً، كاد يستسلم.

كاد يقول لنفسه: ربما كانوا على حق. ربما كان مريضاً فعلاً. ربما الصمت الذي بحث عنه لم يكن سوى عرض من أعراض الاضطراب.

ثم حدث شيء صغير.

في أحد الإعلانات ظهرت خلفية لشارع ليلي. للحظة قصيرة جداً، بين صورتين، لمحت عيناه شيئاً يشبه المستودع القديم. أو ربما تخيله. لم يكن متأكداً. لكن في تلك اللحظة العابرة تذكر صوت يوسف وهو يقول:

«لماذا يجب أن أسمعها حتى وأنا نائم؟»

الجملة لم تكن إعلانية. كانت بشرية. خشنة. غير مكتملة. وغير قابلة للبيع.

سامي أمسك بها كمن يمسك بحبل رفيع في ظلام.

جلس منتصب الظهر. الجهاز على معصمه سجل ارتفاعاً مفاجئاً في النبض. الجدران لاحظت التغير فوراً وضاعفت الكثافة. الصور أصبحت أسرع، والأصوات أعلى، والجمل أكثر إلحاحاً.

لكن الحبل الرفيع لم ينقطع.

همس سامي، بصوت لا يكاد يسمعه هو نفسه:

— لستُ صالحاً بعد.

الجدران لم ترد. كانت مشغولة بالبيع.

وهو بقي ممسكاً بالجملة البشرية الوحيدة التي تبقى لديه، كآخر خيط يربطه بما كان قبل أن يتحول إلى مواطن صالح تماماً.

الفصل الحادي عشر

الصباح الجديد

أفرجوا عنه في صباح اليوم الرابع عشر.

الدكتور رامي صافحه بحرارة عند الباب الخارجي للمركز، وسلمه ظرفاً رفيعاً يحتوي على تقرير طبي مختوم وتوصيات بالمتابعة المنزلية.

— أنت الآن في منطقة الأمان — قال بابتسامة مهنية. — مستوى الرفض لديك ٣٪ فقط. هذا ممتاز. استمتع بحياتك، ولا تتردد في العودة إذا شعرت بأي انتكاسة.

سامي هز رأسه. لم يبتسم. لكن لم يعترض أيضاً.

السيارة التي أقلّته لم تكن رمادية رسمية هذه المرة. كانت سيارة أجرة عادية، مليئة بالإعلانات كالعادة. جلس في المقعد الخلفي ونظر من النافذة. المدينة كانت كما تركها: شاشات، أصوات، وجوه تبتسم لأشياء تُباع. الفرق الوحيد أنه لم يعد يشعر بالألم الحاد الذي كان يشعر به من قبل. الضجيج أصبح خلفية مقبولة. تقريباً.

عندما فتح باب شقته، وجدها قد تغيّرت.

الجدران كلها أصبحت سطوح عرض نشطة. السقف يعرض سماءً زرقاء مثالية مع سحابة تمر من حين لآخر تحمل شعاراً خفيفاً. الأرضية نفسها تضيء بجمل ترحيبية كلما مشى عليها. الثلاجة، السرير، حتى باب الحمام... كلها أصبحت أكثر ذكاءً وأكثر إلحاحاً.

على الطاولة كانت هناك باقة ورود بلاستيكية صغيرة وبطاقة:

«مرحباً بعودتك مواطناً متجاوباً. من هيئة الصحة الإعلانية»

جلس سامي على كرسيه القديم. حاول أن يتذكر كيف كان يجلس هنا قبل كل شيء. الصورة جاءت باهتة.

في الأيام التالية حاول أن يعيش كما يُفترض أن يعيش المواطن الصالح.

كان يترك الأجهزة تعمل. كان يشاهد الإعلانات حتى النهاية أحياناً. كان يختار المنتجات التي تظهر له أكثر من غيرها. في المكتب كان يبتسم عندما يتحدث الزملاء عن العروض الجديدة. الجهاز الصغير الذي أُعطي له للمتابعة المنزلية كان يسجل مؤشرات جيدة باستمرار.

لكن الفراغ كان هناك.

فراغ كبير وصامت في وسط الصدر، لا تملؤه الإعلانات ولا الدواء ولا التقارير الطبية. كان يستيقظ في الليل أحياناً على إحساس بأن شيئاً قد سُرق منه، دون أن يستطيع تسمية الشيء بدقة.

في اليوم السادس بعد خروجه، بينما كان يشتري خبزاً من البقالة القريبة، لمح رجلاً يقف عند الرفوف الخلفية. الرجل كان يرتدي ملابس عادية، لكن طريقته في الوقوف، وطريقة نظرته السريعة إلى الكاميرات ثم ابتعاده عنها، كانت مألوفة.

عندما خرج الرجل من البقالة، تبعه سامي على مسافة. في زقاق جانبي توقف الرجل فجأة والتفت.

كان كريم. عامل الصيانة الذي ساعدهما على الخروج من المركز في الليلة الأولى.

وجه كريم تغيّر عندما رآه. للحظة بدا كأنه سيهرب، ثم اقترب خطوة وقال بصوت سريع ومنخفض:

— أنت خرجت. ظننا أنك...

— أين الباقون؟

كريم نظر حوله بسرعة.

— حامد في مركز آخر، مستوى أعلى. سارة أيضاً. يوسف... لا نعرف. ليلى نُقلت إلى فرع خاص بالحالات المتكررة. أنا فقط من بقي في الخارج حتى الآن. هم يضيقون الخناق.

مد يده بسرعة إلى جيب سامي وأدخل شيئاً صغيراً مطوياً، ثم ابتعد وهو يقول بصوت أعلى قليلاً كأنه يكمل حديثاً عادياً:

— الخبز اليوم طازج. جربه.

سامي عاد إلى الشقة. أغلق الباب. جلس على السرير وفتح الورقة بيدين ترتجفان قليلاً.

كانت رسالة قصيرة، مكتوبة بخط يد مرتجف على ورق حقيقي:

«سامي،

إذا قرأت هذا فأنا ما زلت أتذكر.

لا تصدق التقرير بالكامل. الجزء الذي يقاوم لا يموت بسهولة.

هناك مكان آخر. أبعد.

إذا قررت... كريم يعرف الطريق.

ليلى»

قرأ الرسالة ثلاث مرات. ثم رابع مرة.

الجدران من حوله كانت تعرض إعلاناً عن سعادة عائلية مثالية. السقف كان يعرض سماءً زرقاء. الأرضية تضيء تحت قدميه بجملة ترحيبية متكررة.

لكن الورقة في يده كانت حقيقية. خشنة. ثابتة. ولا تبيع شيئاً.

سامي طوى الرسالة ببطء ووضعها في جيبه الداخلي.

ثم جلس ينظر إلى الغرفة التي أصبحت أكثر إغراقاً بالإعلانات من أي وقت مضى، ويشعر بالفراغ في صدره وهو يتحول ببطء إلى شيء آخر. شيء أصغر وأكثر صلابة.

خارج النافذة كانت المدينة تواصل بيع كل شيء.

وداخل الشقة، كان سامي يقرر في صمت إن كان ما يزال قادراً على أن يشتري شيئاً واحداً لنفسه:

نفسه.

الفصل الثاني عشر

القرار

في الليلة التالية لرسالة ليلى، لم ينم سامي.

جلس على حافة السرير والشقة من حوله تعمل بكامل طاقتها الإعلانية. الجدران تعرض عروضاً خاصة لـ«المواطنين العائدين من رحلة التعافي». السقف يرسل ضوءاً أزرق هادئاً مع جملة تتكرر كل دقيقة:

— أنت بخير الآن.

— أنت بخير الآن.

— أنت بخير الآن.

الجهاز المنزلي على الطاولة كان يسجل مؤشرات مستقرة. النبض، التوتر، مستوى التجاوب... كلها ضمن النطاق الآمن. التقرير الطبي الذي خرج به من المركز كان يقول الحقيقة جزئياً: معظم الرفض قد اختفى. لكن الجزء الصغير الذي بقي كان يجلس معه في الغرفة مثل شخص آخر صامت.

أخرج الرسالة من جيبه وقرأها مرة أخيرة تحت الضوء الخافت.

«الجزء الذي يقاوم لا يموت بسهولة.»

طوى الورقة ووضعها في فمه هذه المرة. مضغها ببطء حتى تحولت إلى عجينة صغيرة، ثم ابتلعها. لم يعد يريد أن تُضبط معه ورقة حقيقية. الورق أصبح دليلاً جنائياً.

نهض. ارتدى ملابس عادية. أطفأ كل الأجهزة التي يستطيع إطفاءها (كانت قليلة). ثم خرج من الشقة دون أن يغلق الباب خلفه. الباب نفسه عرض عليه عرضاً خاصاً لأنظمة الأمان المنزلية وهو يمر.

في الشارع كان الليل متأخراً. الشاشات ما تزال تعمل، لكن الحركة البشرية خفيفة. سار بهدوء نحو البقالة التي رأى فيها كريم أول مرة. انتظر. بعد نصف ساعة ظهر كريم من زقاق جانبي، يده في جيبه، عيناه تمسحان الشارع بسرعة.

اقترب سامي منه وقال بصوت عادي:

— الخبز اليوم أيضاً طازج؟

كريم نظر إليه لحظة طويلة. ثم أجاب بصوت منخفض:

— أطازج مما تظن. هل قررت؟

— نعم.

— المكان أبعد هذه المرة. الإشارة هناك أضعف. والمراقبة أقل كثافة حتى الآن. لكن الطريق ليس آمناً. وإذا وصلنا... قد لا نعود بسهولة.

سامي هز رأسه.

— لا أريد أن أعود.

ساروا معاً نحو أطراف المدينة. لم يركضا. لم يختبئا كثيراً. تعلما أن الحركة الهادئة العادية أقل لفتاً للانتباه من الهروب الواضح. كلما مرت كاميرا ذكية كانا يخفضان رأسيهما قليلاً ويتحدثان عن الطقس أو عن الأسعار كأي مواطنين عاديين عائدين من سهر متأخر.

بعد أكثر من ساعتين وصلوا إلى منطقة جديدة: مباني منخفضة مهجورة، أعمدة إنارة معظمها مطفأ، وشاشات قليلة جداً تعمل بضعف كأنها هي أيضاً متعبة. كريم توقف أمام باب خشبي قديم في جدار مستودع أصغر من السابق.

طرق عليه بطريقة مختلفة هذه المرة.

الباب فُتح. وجه امرأة لم يرها سامي من قبل ظهر في الفتحة، نظرت إليهما، ثم تنحت جانباً.

دخلا.

المكان كان أفقر وأضيق من المستودع الأول. مصباح واحد. بضعة كراسٍ. راديو قديم يصدر صوت موجات خافتة. وعلى طاولة صغيرة كومة من الأوراق المكتوبة بخط اليد وثلاث كتب ورقية مهترئة.

جلسا. المرأة التي فتحت الباب قالت فقط:

— مرحباً. أنتما متعبان. ناما أولاً. الكلام يأتي غداً.

أُعطي سامي بطانية رقيقة ومكاناً في الزاوية. استلقى على جنبه وسمع صوت المدينة البعيدة كأنه يأتي من عالم آخر.

للمرة الأولى منذ أسابيع طويلة، لم تكن هناك جدران تبيع له شيئاً.

لم تكن هناك جمل تتكرر في رأسه رغم إرادته.

لم يكن هناك جهاز على معصمه يسجل نبضه كل ثانية.

كان هناك فقط صوت تنفسه، وصوت كريم وهو يهمس لشخص ما في الجهة الأخرى من الغرفة، وصوت الموجات الضعيفة من الراديو القديم.

سامي أغمض عينيه.

في مكان ما داخل صدره، الجزء الصغير الذي قاوم حتى النهاية استرخى أخيراً. ليس لأنه انتصر. بل لأنه وجد مكاناً يستطيع أن يستمر فيه بالمقاومة، حتى لو كانت المقاومة هذه المرة أهدأ وأكثر خفاءً وأقل بطولة.

خارج المستودع كانت الشاشات البعيدة ما تزال تبحث عن وجوه جديدة.

وداخله، في الظلام النسبي، كان سامي عادل يبتسم ابتسامة صغيرة جداً غير مرئية لأحد.

ابتسامة رجل قرر أن يبقى غير صالح قليلاً...

لأطول وقت ممكن.

— نهاية —

خاتمة

ذات صباح آخر

بعد أربع سنوات وسبعة أشهر.

في غرفة صغيرة على أطراف مدينة أخرى، استيقظ رجل في حوالي الرابعة والثلاثين من عمره قبل أن يشتغل أي جهاز. لم يكن هناك منبه. لم يكن هناك صوت امرأة تهمس باسم منتج. الغرفة كانت باردة قليلاً، والنافذة مفتوحة على سماء رمادية في بداية الخريف.

الرجل جلس على حافة السرير الخشبي البسيط ونظر إلى يديه. على معصمه الأيسر كانت هناك ندبة باهتة مستطيلة الشكل، مكان جهاز قديم نُزع منذ زمن. ابتسم ابتسامة صغيرة كأنها عادة قديمة لم تمت تماماً.

من الغرفة المجاورة جاء صوت خافت: شخص آخر يحرك أوراقاً. ثم صوت موجات راديو قديم يبحث عن محطة بعيدة غير إلزامية. لم يجد شيئاً واضحاً، فاستمر في إرسال صوت الهواء الأبيض الناعم.

الرجل ارتدى قميصاً بسيطاً وخرج إلى الممر الضيق. في المطبخ الصغير كان ثلاثة أشخاص يجلسون حول طاولة خشبية: امرأة في أواخر العشرينيات تكتب في دفتر، وصبي أصبح شاباً الآن ويقرأ كتاباً ورقياً مهترئاً، ورجل أشيب يصلح جهازاً إلكترونياً قديماً بتركيز صامت.

لم يتكلم أحد عن الليلة السابقة. لم يتكلم أحد عن البرج الذي تعطل لست ساعات في حي كامل على الجانب الآخر من المدينة. لم يتكلم أحد عن الشكاوى التي ظهرت فجأة على الشبكة من مواطنين «شعروا بضيق غير مبرر» بسبب الانقطاع المؤقت للإعلانات.

فقط امرأة رفعت رأسها من الدفتر وقالت:

— الشاي جاهز.

الرجل صب لنفسه كوباً ووقف عند النافذة. من بعيد كانت أضواء المدينة ما تزال تومض. الشاشات العملاقة مستمرة. النظام لم يسقط. لم يتغير كثيراً في الظاهر. الإعلانات ما تزال تملأ معظم الساعات ومعظم الأماكن.

لكن في بعض الأحياء الطرفية، وفي بعض الغرف الصغيرة مثل هذه، وفي بعض الليالي النادرة، كان الناس يكتشفون أن الصمت ممكن لساعات. وأن الرفض، حتى لو كان صامتاً وصغيراً ومتقطعاً، ما يزال ينتقل من شخص إلى آخر مثل عدوى بطيئة.

الرجل شرب الشاي ببطء. الطعم كان عادياً. لا شعارات على الكوب. لا جملة ترويجية تظهر على سطح السائل.

في مكان ما داخل صدره، الجزء الذي قاوم ذات صباح بعيد في عام لم يعد يذكره أحد كثيراً، كان ما يزال موجوداً. أصغر مما كان. وأكثر هدوءاً. لكنه لم يمت.

خارج النافذة بدأت المدينة تستيقظ تدريجياً. الأصوات الإعلانية تتصاعد من بعيد كالمعتاد.

أما داخل الغرفة، فقد بقي الصمت بضع دقائق إضافية.

دقيقة واحدة.

ثم أخرى.

ثم ثالثة.

قبل أن يعود العالم إلى ضجيجه المعتاد.

الرجل وضع الكوب فارغاً على الحافة، ونظر إلى أصحابه، وقال بصوت عادي جداً:

— يوم جديد.

ولم يضف شيئاً آخر.

— تمت —